الفرات السوري الأوسط
وأولى المجتمعات الزراعية الرعوية

جاك كوفان

تعريب: إحسان شيط

سنتكلم عن دور سورية الشمالية، وبخاصة عن الفرات الأوسط، في نشوء وانتشار أولى المجتمعات الزراعية الرعوية. وفي الواقع تميزت هذه المنطقة بظاهرتين أساسيتين في بدايات العصر الحجري الحديث جعلتا منها مركزا هاما لانتشار المدنية في الشرق الأدنى، وحوض المتوسط الشرقي، وبالتالي في العالم القديم كله.

الظاهرة الأولى هي أن الفرات الأوسط يشترك مع مناطق سورية أخرى، كمنطقة دمشق، ومنطقة الشرق الجنوبي، ووادي الأردن بأنه تم فيها اكتشاف الزراعة حوالي ٩٨٠٠ قبل الآن حسب التوقيت بالفحم المشع، يعني حوالي ٩٠٠٠ عام قبل المسيح حسب التوقيت المعير، وهي الفترة المسماة النيوليتي ما قبل الفخار (أ) العصر الحجري الحديث ما قبل الفخار (أ).

والظاهرة الثانية هي أن الفرات الأوسط قد شهد في الألف التاسع والثامن قبل الميلاد ولادة مدنية (النيوليتي ما قبل الفخار ب) والتي انتشرت فيما بعد في كل الشرق الأدنى. وفيها تم اكتشاف تربية المواشي، وبعدها البداوة الرعوية. التي كان لها أثر كبير في انتشار ثقافة العصر الحجري الحديث إلى مسافات بعيدة من خلال العلاقات الاقتصادية والثقافية بين المدنيات المتباعدة.

وسبب غزارة معطياتنا عن العصر الحجري الحديث في سورية هو حملات التنقيب في المواقع الأثرية التي نظمتها الحكومة السورية في منطقة الغمر في سد الفرات عام ١٩٧٠ والآن في سد تشرين.

لقد تعرفنا على بدايات الألف التاسع قبل الميلاد في حفريات مريبط من قبل (فان لون ١٩٦٨). وفي الحفريات التي قمت بها (كوفان ١٩٧٧) بين ١٩٧٠ و١٩٧٤. وقد قدمت الأسبار التي أجريناها في تل الشيخ حسن بعض المعلومات المتممة (كوفان ١٩٨٠). ونحن الآن ننتظر كثيراً من التفصيلات حول تطور الزراعة من الحفريات في موقع الجرف الأحمر قرب سد تشرين التي بدأ فيها ماكليلان ١٩٩٢. (ماكليلان وموترام ١٩٩٠). وتتابع البعثة الفرنسية السورية العمل في نفس الموقع بإدارة دانييل ستوردور وبسام جاموس.

حوالي ٨٧٠٠ ق.م ظهر (النيوليتي ما قبل الفخار ب) نتيجة التطور العميق للأسس الثقافية السابقة. ولقد قدمت حفريتنا في المريبط (المرحلة الخامسة) عام ١٩٧٢ المعلومات الأولية، التي تم استكمالها في حملة تنقيب جديدة في موقع الشيخ حسن، تقوم بها د. ستوردور. وقدم هذا الموقع الذي أصبح اليوم جزيرة في بحيرة الأسد بعض المعلومات عن (النيوليتي ما قبل الفخار ب) القديم (ستوردور نفس المجلد)، وحول نفس الفترة يوجد الآن تنقيبات في موقع جعدة التي ليست بعيدة عن سد تشرين يقوم بها كوكينيو (كوكينيو نفس المجلد).

بين ٨٢٠٠ و٧٠٠٠ ق.م (النيوليتي ما قبل الفخار ب) الوسيط والحديث) قدم الموقع الرائع الذي تعمل فيه

■ راجع التعليقات والمراجع والصور في البحث الأصلي بالقسم الأجنبي

البعثة الإسبانية (موليست نفس المجلد) مع باحثين فرنسيين معطيات عديدة حول نشوء وتطور تربية المواشي، وسوف تقارن مع معطيات سابقة قدمها موقع تل أبو هريرة المغمور عام ١٩٧٠ البعثة البريطانية (مور وال ١٩٧٥).

وانطلاقا من تنقيباتنا وتنقيبات زملائنا، تساءلنا مؤخراً (كوفان ١٩٩٤) عن الأسباب التي خلقت هذه الطفرة الاقتصادية الأساسية التي دفعت الإنسان من حياة الصيد والتقاط الثمار إلى الاعتماد على الزراعة وتربية المواشي في تأمين معيشته. ويبدو لنا أن هذا التحول نتج عن هزات ثقافية وأيديولوجية سبقته.

نشوء الزراعة

كان استيطان القرى أسبق من اكتشاف الزراعة في كل الشرق الأدنى. ظهرت القرى بين ١٢٠٠٠ و١٣٠٠٠ قبل الآن (أي ما يعادل ١٢٠٠٠ و١٠٠٠٠ق.م) أسسها الصيادون جامعي الثمار في فترة الحضارة النطوفية، على المساحة الممتدة من الشرق الجنوبي ووادي الأردن حتى الفرات. وفي منطقتنا كان النطوفيون هم أول من سكن قرى أبو هريرة وبعدها المريبط على ضفاف النهر في منطقة تتميز بموارد طبيعية متنوعة جداً: فعلى الهضاب المجاورة للنهر كان يوجد غزلان وأنواع من الخيليات والحمير برية. أما في منطقة الزور أي غابات النهر كانت تعيش الوعول وأنواع من البقريات. إضافة إلى الطيور العابرة والأسماك والقواقع التي لا تنفذ من مياه النهر. استطاع هؤلاء القرويون أن يستقروا بشكل دائم في قراهم. وكانوا يخزنون الحبوب البرية التي تنضج في أواخر الربيع. كما كانوا يبدلون خطط صيدهم حسب الفصول وحسب الطرائد المتاحة، ولكنهم كانوا يصطادون الأسماك بشكل مستمر: لذلك نجد كميات كبيرة من حسك الأسماك عند الغربلة الدقيقة لتربة مواقع التنقيب. وفي حالة التغيرات المناخية الحادة كفترة الجفاف التي حدثت في نهاية الألف الحادي عشر في الشرق، في نهاية الفترة النطوفية، واستمرت طوال الفترة الخيامية التي تلتها (فترة مناخية عالمية دعيت في أوروبة درياس الحديث) كان من أثر هذه الصدمة المناخية قلة الأمطار وجفاف الكثير من السبخات في السهول العالية، ولكنها كانت معدومة الأثر على النباتات والحيوانات التي كانت تعيش على ضفاف النهر، وعلى الناس الذين كانوا يعيشون على هذه الضفاف.

ظهرت أقدم آثار الزراعة بعد الدرياس الحديث في حوالي ٩٨٠٠ قبل الآن (٩٠٠٠ سنة ق.م) خلال المرحلة ٣ب في المريبط، وفي إطار ثقافة المريبط، نجد أن القرية الصغيرة ذات البيوت المستديرة، التي سبق وبناها النطوفيون في حوالي ١٠٥٠٠ق.م، تحولت في ١٠٠٠٠ق.م (المرحلة ٢) إلى قرية ليست أكبر من السابقة. تعود إلى الثقافة الخيامية، وتختص ببعض المستجدات، منها تقني (كظهور أول رؤوس السهام) وبعضها الآخر أيديولوجي، كظهور أول آثار عبادة الإلهة وعبادة الثور، العبادات التي سيكون لها مستقبل كبير. وحتى ذلك الحين لم تحدث تطورات في المجال الاقتصادي. حيث كان الصيادون وصيادو الأسماك وملتقطو الثمار يعيشون على ما تقدمه لهم الطبيعة يوماً بيوم. ولا تبدأ هذه القرى بالتوسع الملحوظ سوى في المرحلة الثالثة للمريبطي، لتصل إلى حدود الهكتارين. وفي هذه المرحلة بالذات نلاحظ زيادة واضحة في كمية الحبوب بدلالة غبار الطلع أو الحبوب المكتشفة في الحفريات. هذه الحبوب كانت تجمع سابقاً بكميات قليلة مباشرة من الطبيعة. وهي تتألف من القمح والشعير والشيلم. ومن الأنواع التي لم تدجن بعد، أي أنه لم تطرأ عليها التبدلات الشكلية التي تحدثها الزراعة. إذن لا يوجد هناك برهان مباشر من علم النبات على بداية الزراعة، حتى أن بعض علماء النبات يشكون في كون مرحلة مريبط ٣ب زراعية، حسب الاعتقاد أن التبدلات الشكلية التي تطرأ على النبات بسبب الزراعة تظهر في وقت قصير، ولكن اليوم، برهنت التجارب التي تمت في وسط فرنسة في جالس / الأردش، على أن التدجين يمكن أن يكون بطيئاً جداً. حتى أنه في بعض الحالات توجد مرحلة زراعة ما قبل التدجين (ويلكوكس) تمتد على عدة قرون (أندرسون وآخرون ١٩٩١). وهناك مؤشرات أخرى تدل على أنه هكذا كان الوضع في مريبط ٣، وفي نفس الوقت وفي منطقة دمشق وفي وادي الأردن ظهرت أولى الحبوب المدجنة.

وليس المهم في بداية الزراعة هو ظهور الأنواع المدجنة الجديدة للحبوب، بل التأكد من أن الإنسان بخلاف الأنواع الحيوانية الأخرى لا يكتفي بما يقدمه وسطه الطبيعي، ولكن بدأ بتحويل هذا الوسط وصار يتدخل مباشرة في تكيف مصادره الغذائية، مستعملاً تقنيات جديدة على أنواع مختارة لتحقيق هذا الهدف. وتعتبر هذه المبادرة بحد ذاتها ثورة. ويدل مثال المريبط على أن ما حدث فيها ليس كما

يظن البعض نتيجة لنضوب الموارد الطبيعية. وترك صيد الأسماك، في المرحلة الثالثة، وصيد الطرائد الصغيرة، والاستعاضة عنهما بالطرائد الكبيرة. تثبت أنه كان هناك مجال لاختيار حر، وليس تحت ضغط الحرمان الغذائي. وبالمناسبة لم يكن الحرمان في يوم من الأيام محرضاً على الاختراع.

وكما أوضحنا سابقاً (كوفان ١٩٨٧, ١٩٩٤)، يتوجب علينا أن نفتش عن مصدر هذه التحولات ليس في ضغوط البيئة المادية ولكن في الثقافة نفسها وفي الطريقة المختلفة التي يستوعب بها العقل شروط البيئة. ومن وجهة النظر هذه تكون التحولات النفسية هي التي لعبت الدور الأهم، يشهد على ذلك الطفرة الإيديولوجية والدينية في مجتمع الفترة الخيامية والتي سميناها (ثورة الرموز) وذلك قبيل الثورة النيوليتية.

ومن المحتمل أن يكون هذا الامتداد للثقافة المريبطية التي يمكن أن نعزو إليه الاقتصاد الزراعي الأول ليس محدوداً بشواطىء الفرات الأوسط. ففي جوار حلب المباشر في تل الكرامل على بعد بضعة كم شمال حلب نجد آثاراً للثقافة المريبطية (كوبلامد ومور ١٩٨٥) وأبعد قليلاً إلى الشمال أو الجنوب في منطقتي إعزاز والسفيرة (بحيرة الجبول) يوجد شروط بيئية ملائمة وهي مناطق بالكاد معروفة من قبل علماء ما قبل التاريخ، ومن الضروري أن تجري فيها تنقيبات معمقة.

ظهور الـ (النيوليتي ما قبل الفخار ب) وتربية المواشي

ويبدو أن منطقة الفرات الأوسط كانت إحدى ثلاث مناطق شهدت ظهور الزراعة في الشرق الأدنى. واشتركت في ذلك كما رأينا مع الأردن ومنطقة دمشق، وذلك في الإطار الزمني لـ (النيوليتي ما قبل الفخار أ).

والنيوليتي ما قبل الفخار ب الذي يمتد من ٨٧٠٠ إلى ٧٠٠٠ سنة ق.م (٩٥٠٠ حتى ٦٨٠٠ قبل الآن) ليس إطاراً زمنياً بسيطاً. فهو على خلاف الحال في النيوليتي ما قبل الفخار (أ) الذي كان يشمل ثلاث حضارات متزامنة متقاربة، ولكن متمايزة حسب موقعها سواء في المشرق الجنوبي أو المتوسط (دمشق) أو الشمالي. فهو يمثل ثقافة موحدة كما في الفترة النطوفية. هذه الثقافة لها منشأ محدد وهو الفرات الأوسط، ومنه راحت تنتشر أولاً نحو الشمال ثم نحو الجنوب والشرق.

لم يتواجد النيوليتي ما قبل الفخار ب في مرحلته القديمة إلا في منطقة المشرق الشمالي، وقد تطور في ساحة المريبط. ويمكن أن نشاهده في مريبط ٤أ، وفي الشيخ حسن (تنقيبات ستوردور)، وفي جعدة. واعتباراً من ذلك الحين في نهاية فترة المريبط تبدأ أولى المخططات الهندسية المستطيلة للبيوت بالظهور، والتزايد على أطراف البيوت المستديرة الباقية. ويتطور التسليح بظهور أشكال جديدة من السهام (نصال صيدا)، والفؤوس المجوفة من الأحجار الخضراء أو من البازالت. وتبقى الزراعة في هذه المنطقة في مرحلة ما قبل التدجين. وهذه المرحلة المتوسطة بين مرحلة جمع الثمار وظهور أنواع جديدة نتيجة فعل الزراعة، ستتضح بدون شك من معطيات التنقيب في الجرف الأحمر وجعدة.

وعلى كل الأحوال يخرج النيوليتي ما قبل الفخار ب من حدود سورية الحالية ليستوطن في منحدرات طوروس شمال الجزيرة. وهناك في المواقع التركية في حفر هويوك وتشايونو نلاحظ وجود القمح المدجن بأنواعه والشعير والبقوليات (العدس) وذلك منذ بداية الاستيطان. ويبدو أن التدجين بمعنى ظهور التحولات الشكلية للأنواع البرية هو أسرع في الأراضي الشمالية منه في الفرات الأوسط حيث نشأ.

أصبح النيوليتي ما قبل الفخار ب الأوسط المعروف في منطقتنا باسم مريبط ٤ب وأبو هريرة قبل الفخار أو أكثر وضوحا بسبب الحفريات الجارية في حالوله قرب منبج. وهو الفترة التي انتشر فيها النيوليتي ما قبل الفخار ب نحو الجنوب إلى فلسطين (أريحا، عين غزال) وقد أثر في طريق انتشاره على ثقافة العصر الحجري الحديث في حوض دمشق (أسود ٢). وتشير معطيات علم الإناسة إلى أن نفوذ سورية على المشرق الجنوبي لم يكن ثقافياً فحسب بل كانت ترفده بشرياً. وحينئذ تظهر تربية المواشي على ضفاف الفرات في أبو هريرة، أو حالولة أو أريحا. في بادىء الأمر يتم تدجين الماعز، والأغنام في المشرق الشمالي، وأخيرا يتأخر تدجين البقر والخنازير إلى النيوليتي ما قبل الفخار ب الحديث.

ويتميز النيوليتي ما قبل الفخار ب الحديث اعتبارا من ٧٦٠٠ ق.م بالانتشار المكاني. وهو الذي سينقل الزراعة وتربية المواشي إلى مناطق كانت غير مأهولة: في الغرب الشاطىء السوري واللبناني، وبخاصة تأسيس رأس شمرا،

وفي الجنوب الشرقي في المنطقة الصحراوية تأسيس بقرص على ضفاف الفرات أو إشغال الواحات السورية كالكوم وتدمر الشبه المهجورة منذ العصر الحجري القديم.

وحوالي ٧٠٠٠ق.م ومن واحة الكوم (ومثلاً في قدير ا، انظر كوفان ١٩٩٠ وستوردور وطه في مقال لم ينشر بعد) عندنا الدليل على أن البداوة الرعوية كانت موجودة. وكانت تربية المواشي تقوم على تربية الأغنام وبعض الماعز والأبقار. وكانت الزراعة متواجدة مع الاقتصاد الرعوي، وكانت تمارس في أوقات الاستقرار المديدة. وساعدت البداوة التي ظهرت في النيوليتي ما قبل الفخار ب على خلق اتصالات بين مناطق متباعدة. وللبداوة يعود الفضل فيما بعد في أنها ساعدت على نقل الفخار الأسود اللماع المسمى ("Dark DFBW Faced Burnished Ware" أو فخار عمق أ) من منطقة الساحل إلى منطقة أبو هريرة على الفرات، أو إلى منطقة تل الرماد قرب دمشق. وفي هذه الفترة بدأت منطقة حلب تلعب دورها التاريخي كملتقى طرق للتبادلات والتحركات البشرية من الشمال إلى الجنوب ومن الشرق إلى الغرب.

وهذه الفترة هي أيضاً فترة المواقع الجديدة في العراق الشمالي (مغزلية، سوتو، حسونة، أم الدباغية) وتظهر استمرار تقاليد النيوليتي ما قبل الفخار ب في العمارة والصنائع. وكل ذلك يدل على أن قوة انتشار النيوليتي ما قبل الفخار ب في كل مرحلة تعود إلى ارتباط الزراعة بتربية المواشي.

ما هي أسباب هذا الانتشار الجغرافي؟ لقد بينا (كوفان، ١٩٩٤):

١ـ أن الملامح الثقافية التي تسمح بتحديد النيوليتي ما قبل الفخار ب من بيوت مستطيلة، وتطور الأسلحة، والسيطرة على العالم الحيواني من خلال تربية المواشي اعتباراً من النيوليتي ما قبل الفخار ب الوسيط. كل هذه الملامح وحدت بين الرموز في المناطق. وتتأكد بشكل واضح ذكورية الثقافة في الفن والدين بظهور الدمى التي تمثل رجالاً، وظهور عبادة الثور. ومثلا يتظاهر وصول النيوليتي ما قبل الفخار ب إلى عين الغزال قرب عمان بظهور العديد من دمى الثيران الطينية بعضها مجروح بشفرات من السيلكس تمثل سيطرة الإنسان على الحيوان. وهذا أول ظهور لموضوع عبادة الثور الذي سنتعرف عليه في أناضول العصر الحجري الحديث على الجداريات المرسومة في جبال هويوك، وبعدئذ في كل حوض البحر الأبيض المتوسط. ولكننا نجد أن صورة الثور كانت غائبة تماما في النيوليتي ما قبل الفخار ب الفلسطيني (السلطاني) حيث عبادة مكرسة للإله الأم فقط.

٢ـ وكل خصائص النيوليتي ما قبل الفخار ب كان لها مقدمات في النيوليتي ما قبل الفخار أ في منطقة الفرات المريبطي، وهذه الخصائص التي كانت موجودة في مريبط ٥ والشيخ حسن والجرف الأحمر، وتتألف من البيوت المستطيلة، واستعمال طريقة خاصة في تقطيع السيلكس على هيئة نواة زورقية الشكل والتي أعطت أسلحة من نوعية جيدة، وكان ظهورها أسبق في الشمال منه في الجنوب. في حين أن عبادة الثور تعود فيها إلى الفترة الخيامية. وتميز هذه الخصائص الطفرة العقلية الثانية التي حدثت في النيوليتي ما قبل الفخار ب وظهر خلالها حركة ذكورية من نوع جديد لا تفسر فقط عبادة الأسلحة والسيطرة على عالم الحيوان، بل تفسر الميل إلى السيطرة على أراض جديدة.

وأدى هذا الاندفاع للسيطرة الذي تميز به النيوليتي ما قبل الفخار ب إلى إدخال العالم القديم في العصر الحجري الحديث انطلاقاً من الشرق الأدنى. وكانت الثقافات المادية مختلفة باختلاف المناطق لاستمرار الخصوصيات الثقافية المحلية فيها. ولكنها كلها تميزت بملمحين جديدين بتأثير هذا الرفد الشرقي: الملمح الأول هو ثورة الرموز التي رافقت ديناً جديداً فيه الإلهة الأم وإله مذكر له شكل بشري أو بهيئة ثور. والملمح الثاني هو اقتصادي وهو انتاج القوت. ولا يمكن فصل التغيير المادي الذي بدل وجه العالم عن التغيير الفكري الذي سمح برؤية هذا العالم رؤية أخرى، ويبدو أن التغييران نشأا في وادي الفرات الأوسط ومنطقة حلب.